المدونة | المجلد6/ العدد 3/ ديسمبر 2019. ص 691- 706

الدّراسات مابعد الكولونيالية والتّأسيس الجديد للرّواية العربية الحديثة، رواية "زينب" أنموذجا

Postcolonial Studies and the New Establishment of the Modern Arabic Novel , Zainab 's novel as a model

أحلام الواج *

د. سليم حيولة ♣

تاريخ الإرسال: 2019/09/26	تاريخ القبول:2019/11/21	تاريخ النشر:2019/12/25

الملخص:

تحاول هذه الدّراسة الكشف عن دور الدّراسات مابعد الكولونيالية في تشكيل البنية الفنية للرّواية العربية الحديثة، و البحث عن الأسباب الحقيقية الّتي منحت رواية "زينب" للكاتب المصري محمد حسين هيكل حق الرّيادة الإبداعية والفنية باعتبارها أوّل رواية عربية ناضجة فنيا وفكريا ، والكشف عن أهم الأسباب الّتي ساهمت في جعل هذه المقولة تنتشر لفترة طويلة من الزمن وتصبح في حكم المسلّمات في الأدب العربي الحديث والمعاصر، حيث تُناقش مسألة الرّيادة الإبداعية باعتبارها إحدى نتائج دراسات الخطاب الكولونيالي الّتي تسعى إلى كشف ترسيخ فكرة التبعية للآداب الأوروبية وتأثّرها بها لخلق نماذجها الإبداعية، و جعلت النقّاد العرب والأوروبيين يسلمون بصحّتها، و من هنا أصبحت الرّواية العربية تدور في فلك الرواية الأوروبية .

المؤلف المرسل: أحلام الواج Ahlemlouadj1993@gmail.Com

* **جامعة يحي فارس بالمدية/ الجزائر** Ahlemlouadj1993@gmail.Com

♣ **جامعة يحي فارس بالمدية / الجزائر** haioula@yahoo.fr

الكلمات المفتاحية: الدّراسات مابعد الكولونيالية- الرّواية العربية- رواية زينب- الرّيادة الإبداعية.

Abstract:

This study aims to reveal the role of postcolonial studies in shaping the structure of the modern Arabic novel, and to investigate the real reasons that gave the novel "Zainab" by Egyptian writer Mohamed Hussein Heikal the right of creative and artistic leadership as the first Arab novel mature technically and intellectually, and to uncover the most important reasons that contributed to make this statement spread for a long period of time and become the rule of Muslim women Modern and contemporary Arabic literature, where the issue of creative leadership is discussed as one of the results of the studies of the colonial discourse, which seeks to uncover the establishment of the idea of dependence on European literature and influenced them to create their creative models, and made the critics Arab and European recognize their health, Aya Arabia revolves around the European novel.

***Key words**:Postcolonial studies- The Arabic Novel - Zeinab's Novel - Creative Leadership.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

مقدمة:

ساهمت الدّراسات مابعد الكولونيالية في سن القواعد الأساسيّة الّتي تُبنى على عاتقها الرّواية العربية الحديثة، إذ منحتها سمات جديدة يتمّ من خلالها الحكم على فنيّة الأعمال الروائية العربية، و تُعتبر رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل أوّل رواية عربية ناضجة من النّاحية الفنية والفكرية، كونها شكّلت خصوصياتها الفنية بطريقة تختلف عن المرويات السردية الأخرى، وبالرّغم من وجود العديد من الأعمال الرّوائية التي سبقت هذه الرواية في الظّهور إلاّ أنّها ظلّت مهمّشة ولم تحظ بنفس الاهتمام الذي حظيت به هذه الرواية.

إنّ الحكم على أنّ رواية "زينب" أوّل رواية عربية كان نتيجة "المُحدّد النّقدي الأوروبي" كما يرى عبد الله إبراهيم، وهو موجّه ساهم في جعل هذه الفكرة تنتشر في الساحة الأدبية والنّقدية على السّواء، وأصبحت مُسلّمة ينبغي السّير وفقها، وتمّ بموجب هذه الفكرة نفيُ كلّ الأعمال الروائية العربية الّتي سبقت رواية "زينب" في الظّهور، وانطلاقا من هنا نطرح مجموعة من التّساؤلات الّتي سيتمحور حولها بحثنا، وأهمّها يتعلّق بالأسباب التي جعلت رواية "زينب" أوّل رواية عربية، وإلى أيّ مدى وافقت الرّواية فنّيا الخصوصيات الفنية للرّواية الأوروبية؟ وكيف ساهم الموجّه الكولونيالي في منح رواية زينب حقّ الرّيادة الإبداعية في مجال الرّواية العربية؟

ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن دور الدّراسات ما بعد الكولونيالية في توضيح ظروف تأسيس الرّواية العربية الحديثة، وعن التّحولات الّتي طرأت على الخصوصيات الفنية للرّواية العربية الحديثة، وعن الأسباب الحقيقية التي منحت رواية زينب حقّ الرّيادة الإبداعية، والكشف عن الخصوصيات الفنية لهذه الرواية، وعن المرجعيات الفكرية لمحمد حسين هيكل التي جعلته رائدا في مجال الرّواية العربية .

أولا : رواية "زينب" وبداية تشكّل الرّواية العربية الحديثة

إنّ التّنظير لأصول الرّواية العربية يُرجعها "عبد الله إبراهيم" إلى التّراث الأدبي الأوروبي، وتمّ الحكم على أنّ رواية "زينب"(1914م) أوّل رواية عربية استنادا إلى مطابقتها للخصوصيات الفنيّة التي تتمتّع بها الرواية الأوروبية، وعند قراءتنا لها نجد أنّ الريف المصري يطابق الريف الأوروبي .

كتب هيكل (1888م-1956م) هذه الرّواية إثر تأثّره بالثقافة الأوروبية عموما والرّواية الأوروبية على وجه الخصوص، حيث قرأ العديد من الأعمال الّتي كتبها كبار الرّوائيين الأوروبيين وتأثّر بها ونسج على منوالها، وعبّر عن الواقع المصري بطريقة فنيّة مميّزة، حيث تخلّصت هذه الرّواية من أسلوب المقامة التّقليدي واتّبعت الخصائص الفنية للرّواية، فتمكُّن هيكل من الجانب اللّغوي، وحاجتُه إلى إخراج أفكاره بطريقة فنية هي الّتي دفعته إلى

الكتابة، وبما أنّه نشأ في بيئة ريفيّة فإنّه قام بتصوير الرّيف المصري بطريقة مشابهة للرّيف الأوروبي.

وإذا ما عُدنا إلى التّاريخ الحقيقي لظهور بوادر الرّواية العربية، فإنّنا نجده قد سبق ظهور "زينب" بفترة طويلة نسبيا، ذلك أنّه كانت توجد العديد من الرّوايات العربية الّتي تحمل خصوصيات فنّية تدرج ضمن شروط النّوع الروائي، ويُرجع عبد الله إبراهيم ظروف نشأة الرّواية إلى تفكّك المرويات السّردية التّراثية، فامتزاج الخصائص الفنية لكلّ نوع أدبي وصياغتها بطريقة جديدة ساهم في ظهور أنواع أدبية جديدة، حيث يرى أنّه«**قد تراكم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تراث سردي خصب شكل دفاعا أساسيا لانطلاقة الرواية العربية في القرن العشرين ونكرانه هو استبعاد متقصّد لأهمّ حلقة من حلقات تاريخ الرواية العربية. ينبغي علينا تحليل هذه الظاهرة تحليلا ثقافيا يكشف المحضن السياقي لهذه الظاهرة الأدبية**»[1]. في ظلّ ظهور هذا النوّع الأدبي الجديد (الرواية) ظهرت العديد من الأعمال الرّوائية الّتي ساهمت في إثراء السّاحة الأدبية العربية، لذلك ينبغي الكشف عن السّياق الثّقافي الّذي نشأ فيه هذا النّوع الأدبي الجديد.

صحيح أنّ الرّواية العربية كان لها وجود قبل ظهور رواية "زينب" والأعمال الروائية الأخرى الّتي تلتها، لكن لا بدّ من الكشف عن السّياق الثّقافي الحقيقي الذي قام بتحديد التّاريخ النّهائي لظهور الرواية، فبالرّغم من ظهور العديد من الآراء التي تُثبت عدم ريادة "زينب" للرّواية العربية، إلاّ أنّها لم تحظ باهتمام النقّاد والباحثين، وأصبحت مجرّد آراء عامّة عكس ما قام الفكر الكولونيالي بترسيخه في السّاحة الأدبية والنّقدية، حيث نجد أنّ فكرة ريادة"زينب" للرّواية العربية وجدت اهتماما كبيرا من قبل النّقّاد والباحثين العرب.

ثانيا: الموجه الكولونيالي ودوره في تشكيل الرواية العربية الحديثة فنيا

شهد السّرد العربي في القرن التّاسع عشر العديد من التّحولات التي مسّت الشكل و المضمون، حيث«**صورت الرواية العربية في القرن التاسع عشر الحراك الاجتماعي، بما في ذلك منظومة القيم العامة، والذوق الأدبي السائد، والتصورات الجماعية عن الذات والآخر، كما تجلى ذلك عند "خليل الخوري" و"فرنسيس مرّاش"و"سليم**

البستاني"و"علي مبارك"و"جورجي زيدان"و"المويلحي وآخرين»[2]. عبّرت الرّواية العربية في بدايات ظهورها عن الواقع الاجتماعي، ومن هنا ظهرت قضية مهمّة أثارت جدلا وسط النقاد والباحثين وتمثّلت في مسألة الأنا والآخر، هذه المسألة الّتي أسالت حبر العديد من الكتاب والنقاد، وهي وليدة الحقبة الاستعمارية، ذلك أنّ الاستعمار يأخذ دوما دور الأنا، وبالتّالي يصبح في المركز وينظر إلى الآخر على أساس أنّه هامشي ولا مكانة له في المجتمع ويصبح هذا الأخير يسير وفق الصّورة التي رُسمت حوله.

لقد ساهمت العديد من العوامل في تشكيل هذا النّوع الأدبي الجديد من أهمها الجانب الثّقافي ، فالعامل الثّقافي هو الّذي جعل الرّواية العربية تبدو متأخرة زمنيا من ناحية النّشأة وضعيفة على مستوى المتن والبنية السّردية، وعليه فإنّ البنية السّردية للرّواية لم تنشأ من عدم، وإنمّا أخذت خصوصيات الأنواع الأدبية التي سبقتها وأخذت منها ما رأته مناسبا وقامت بصياغته بطريقة جديدة، كما أنّها لم تأخذ من نوع أدبي واحد فقط، وإنّما أخذت خصوصيات أنواع أدبية متعددة عبر فترات زمنية متباعدة، وعليه فهي امتداد للمرويات السّردية التّراثية،كما إنّ الرّواية العربية لم تأخذ كل خصائصها من الرّواية الأوروبية، ذلك أنّها مزجت بين التّراث العربي والأدب الأوروبي، والرأي القائل بأنّ الرّواية العربية مستعارة من الأدب الأوروبي أمر لا يمكن التّسليم به، ذلك أنّه لا توجد أقوال تاريخية أو حتى مقولات نقدية تُثبت صحّة هذا الرّأي، ولا يمكن اتّخاذ رأي معيّن دون وجود الدّليل القاطع الّذي يثبت صحّته، ذلك أنّ«**الرواية العربية عرفت قبل ترجمة أي من النّصوص الروائية الغربية، لأنّ المعربات إلى اللّغة العربية ظهرت في بلاد الشّام في الرّبع الأخير من القرن التّاسع عشر، والمعرّبات نصوص هزيلة في أصلها جرى نسخها بتصرّف مفرط ليطابق بنية المرويات السّردية العربية، فلم تترك أثرا في نشأة الرّواية العربية لأنها أعادت إنتاج نسق المرويات القديمة، ولدينا عدد كبير من الرّوايات ظاهر قبل رواية زينب لهيكل التي صدرت عام 1913 والتي اعتبرها تاريخ الأدب العربي الرّواية العربية الأولى**»[3] . فالرّواية العربية ذات جذور عربية خالصة، والدّليل على ذلك وجود العديد من الأعمال الرّوائية الّتي كانت شائعة

في البلاد العربيّة قبل تعريب النّصوص الأوروبية، ذلك أنّ النّصوص المعرّبة ضعيفة من ناحية البنية والمضمون ، وبالتّالي فهي تطابق المرويات القديمة.

فالرّواية العربية لم تختلف عن الأوروبية من ناحية النّشأة والتّركيب، فمثلما أخذت الرّواية العربية الخصوصيات الفنية من التّراث السّردي العربي من سيرة شعبية، وخرافة، ومقامة، فإنّنا نجد الأمر نفسه في الرّواية الأوروبية، ذلك أنّها تشكّلت من الملاحم، فامتزاج كلّ العناصر الفنيّة ساهم في صياغة الشّكل العام للرّواية، وعليه فالرّواية العربية «**كانت محكومة بنسق مقارب، وهو نسق يكاد يشمل الأنواع السّردية عامّة، ولا يختصّ بأدب دون آخر، فهي نتاج تمخّض طويل، وتفاعلات متأزّمة في نسيج المرويات السّردية العربية**»[4]. فالتّفاعلات القائمة بين بنية المرويات السّردية العربية ساهم في ظهور هذا النّوع الأدبي الجديد، فالرّواية العربية اتّخذت خصوصياتها الفنية من المرويات السّردية العربية أكثر مما تستمدّ تلك الخصوصيات من الآداب الأوروبية.

وبعد انهيار المرويات السّردية الشّفوية وتفكّكها تشكّلت مادّة أدبية ضخمة، وبدأت ملامح الرّواية تتشكّل، وبعد أن شاع هذا النّوع الأدبي في السّاحة الأدبية العربية ظهر الموجّه الأوروبي، وقام بنشر العديد من الأفكار الّتي تقرّ بأنّ العرب لم يعرفوا فنّ الرواية إلاّ بعد اطّلاعهم على الآداب الأوروبية، وبقيت هذه الفكرة شائعة في السّاحة الأدبية فترة طويلة من الزّمن وتبنّاها العديد من النقّاد والباحثين ودافعوا عنها، وعليه فإنّ«**تفسير الرّواية يشترط قبل الإقدام عليه أن نفكّك الخطاب الاستعماري الذي رسم لنا كيفية نشأة الرّواية، والشّعر الحديث، والأدب المسرحي، والنّقد. الشّائع في الدّراسات النقدية العربية هو الأخذ بمقولات الخطاب الاستعماري، وتفكيك هذا الخطاب سيقود إلى تفسير مختلف للنّشأة**»[5]. فحتى نتمكّن من الوصول إلى التّاريخ الحقيقي لنشأة الرّواية يتطلّب الرّجوع إلى ما نشره الخطاب الاستعماري، حيث قام هذا الأخير بنشر العديد من الأفكار التي تبيّن التّاريخ الفعلي لنشأة الرّواية، وتلك الأفكار لا يمكن التّسليم بها، ذلك أنّ الخطاب الاستعماري يسعى دوما إلى التّقليل

من مكانة الآخر، ويقوم بنشر مجموعة من الأنساق الثّقافية الّتي تجعل الآخر يُسلّم بصحتها، لذلك فإنّ تفكيك الخطاب الاستعماري وتحليله يقود إلى تفسير جديد للنّشأة يختلف عن التّفسير الذي كان شائعا من قبل «**وإذا ما نُظر إلى النّثر بصورته التّقليدية الموروثة، فاليازجي هو الومضة الأخيرة في مداره. فبعده مباشرة بدأت التّحولات الكبرى، فتشقّق العالم الأدبي للنّثر، وتمزّق خلال القرن التّاسع عشر، وأعيد تشكيل مكوّناته، وترتيبها على نحو مختلف تماما لما حصل في الشّعر الذي ظلّ امتثاليا للنّماذج العليا الموروثة إلى منتصف القرن العشرين تقريبا، وذلك يعود إلى أن المسار الأكثر أهمية في النّثر كان يرتبط بالذّائقة التي طوّرتها المرويات السّردية خلال قرون طويلة**»[6]. يمكن القول إنّ حاجة الكتّاب إلى التّجديد في الإبداع، ورغبة القرّاء في قراءة مواضيع تتناسب وروح العصر وتلبّي حاجاتهم، دفع إلى كتابة مواضيع جديدة وإلى ابتكار أنواع أدبية جديدة تتناسب وروح العصر، لأنّ المواضيع التّقليدية لم تعد تخدم القرّاء، فمن خلال تطوّر الأبنية الدّاخلية للرّواية يمكن تحديد التّاريخ الفعلي للرّواية.

ثالثا: الخصوصيات الفنية للرواية العربية الحديثة

سار العديد من الروائيين على نهج البنية الفنية للرّواية التقليدية ، لكنّ الرّواية العربية لم تبق على هذا الحال، وإنّما تطوّرت وتغيّرت وهي في تحوّل مستمرّ، ولم تنقطع الرّواية العربية عن الأعمال السّردية التّقليدية كالمقامة وحكايات ألف ليلة وليلة، وهذا ما نجده في العديد من الرّوايات العربية الّتي تتّخذ من شخصيات ألف ليلة وليلة أبطالا لرواياتها، «**فرواية"موسم الهجرة إلى الشّمال" على سبيل المثال يستخدم فيها بناء التّوازي، وفي روايات جبرا إبراهيم يتّبع بناء التّداخل، وكذلك في روايات مؤنس الرّزّاز ومحمد برادة، وعبد الخالق الرّكابي، وواسيني الأعرج، وأمين معلوف، ولم يعد مقبولا الآن استخدام بناء التّتابع فهو لصيق بالمرحلة الأولى ولهذا فنحن بأمسّ الحاجة إلى وصف تاريخ تطوّر الأشكال والأبنية للرّواية العربية لأنّه هو الذي يكشف لنا التّطوّر السّردي فيها، أما تاريخ النّشأة بالمعنى التّقليدي فلا ينجح بذلك!!**»[7]. يشير عبد الله

إبراهيم إلى ضرورة التكلّم عن تاريخ تطوّر الأنواع الأدبية وأبنيتها السّردية، ذلك أنّ تاريخ النّشأة لا يمكنه أن يصف تطوّر الأبنية السّردية للرّواية .

ظلّت الرّواية العربية محافظة على الخصوصيات الفنّية التّقليدية مدّة طويلة من الزّمن، ثمّ حاولت الخروج عن حدود التقليد و ابتكرت تقنيات و أساليب جديدة ، ذلك أنّ الأنواع الأدبية المختلفة دائمة التّطوّر والتّحوّل، وكلّما تفكّك نوع أدبي يظهر نوع أدبي جديد، وبالتّالي تصبح الأساليب التّقليدية مرفوضة، كما إنّ تحلّل المرويات السّردية وإعادة تشكيلها بطريقة جديدة ينبثق عنها نوع أدبي جديد هذا ما يجعل الأنواع الأدبية الجديدة عرضة للانتقاد والرفض وتفقد قيمتها الفنية، وقد ساهم الموجّه الاستعماري في نشر العديد من الأنساق الثّقافية حول البلدان المستعمَرة، وسعى من خلال ذلك إلى طمس معالم الهوية العربية، والقضاء على الثّقافة العربية وتشويهها،كما امتدّ تأثيره إلى الجانب الأدبي، حيث أصبحت الآداب العربية في خدمة الثّقافة الاستعمارية، كما أنّها أصبحت تسير وفق خصوصيات الآداب الأوروبية، ذلك أن البلد المستعمِر يرى بأنّ الثّقافة العربية لا تملك آدابا، وأصبحت لديهم آداب بفعل احتكاكهم بالأوروبيين وتعرّفهم على آدابهم وقاموا بمحاكاتها.

ساهم التّعريب في انتشار العديد من المرويات السّردية، حيث قام بنقل النّصوص التي تتناسب وذوق القرّاء كما قام بنشر الوعي في السّاحة الأدبية العربية، حيث اقتصر اهتمام الكتّاب العرب فيما سبق على نظم كتاباتهم وفق فنّ المقامة والسّيرة بمختلف أنواعها وبفضل حركة التّعريب تمّ التّعرّف على العديد من الآداب التي تبدو ظاهرة دخيلة على السّاحة الأدبية العربية،كما قامت الرّواية العربية بالتعبير عن ثنائية الأنا والآخر والعلاقة القائمة بينهما، حيث كل طرف يقوم بنشر العديد من الأفكار حول الطّرف الآخر ويسعى كل منهما إلى إثبات ذاته والتّقليل من مكانة الآخر، وقد **«كانت النّصوص الرّوائية والمسرحية المؤلّفة والمعرّبة في القرن التّاسع عشر تدور في أفق مشبع بالآداب القديمة، من الصّحيح أنها أعادت توظيف كثير من عناصر المرويات السّردية لكن الأصحّ أنّها، وطوال تلك الحقبة، كانت تستعير كثيرا من**

أساليبها وموضوعاتها من ذلك الموروث العريق الذي لم يكن أمر التّخلّص منه سهلا»[8]. وعليه فالنّصوص المعرّبة لم تخلُ من توظيف التّراث الأدبي، حيث وظّفت العديد من المرويات السّردية التّراثية، والتي استقت منها طريقة الكتابة والمواضيع المُعالَجة، فتأثّر الرّواية بالمرويات القديمة أمر لا يمكن التّخلّص منه، لأنّ أي عمل أدبي مهما علا شأنه لا ينشأ من فراغ، وإنّما يتقاطع مع غيره من النّصوص الأدبية الّتي سبقته، لذلك يجب على الكاتب أن يتحلّى بثقافة واسعة وأن لا يحصر تفكيره ضمن الثّقافة العربية فحسب، وإنّما يجب أن ينفتح على العديد من الثّقافات العالمية، فالنّصوص المعرّبة تفقد العديد من الخصوصيات الفنّية التي تميّزها، لأنّها تخضع لروح البيئة التي نُقلت إليها، وقد ركّزت الصحف والمجلات على نشر الرّوايات أكثر من غيرها من الأنواع الأدبية الأخرى .

إنّ بدايات انتشار الرّواية كانت عن طريق المجلاّت، حيث تمّ نشر أهمّ الأعمال الرّوائية حتى تجذب اهتمام القرّاء، ثم انتشرت على نطاق واسع، وتمّ معالجتها دراسةً ونقدًا، وروّجت لها على نطاق واسع من العالم، ففي القرن التّاسع عشر، ومن خلال عملية التّعريب أصبح من الصّعب تحديد الهوية الأصلية للنّصوص السّردية، وتعدّدت آراء الباحثين حول أصل كلّ نوع من الأنواع الأدبية، فمثلا قصص "ألف ليلة وليلة" تعدّدت آراء العديد من النّقّاد والباحثين حول الجذور الحقيقية لها، حيث تسعى كل ثقافة إلى إثبات أنّ هذا الكتاب ينتمي إليها « **وسط تفاعل النّصوص المؤلّفة والمعرّبة التي شاعت في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، وبخاصّة الاقتباس غير المقيّد الذي ازدهر آنذاك، ظهرت على التّوالي تاريخيات "زيدان" لتقدّم أول سلسلة، شبه متكاملة، تقوم على تمثيل سردي تاريخي للأحداث العربية -الإسلامية منذ العصر الجاهلي إلى الانقلاب العثماني في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، وعلى الرّغم من أنّ العمر لم يسعف زيدان بإكمال السلسلة، فظلّت بعض العصور دون تغطية، إلاّ أنه كان يعلن باستمرار أنه في سبيله إعادة تفريغ التّاريخ العربي-الإسلامي من مظانّه الكبرى والمعقّدة وتقديمه مبسّطا ومتتاليا»**[9]. كتب جورجي زيدان في مجال

الرّواية التّاريخية، وحظيت رواياته باهتمام كبير من لدن القراء والباحثين، و«**منذ السّبعينات، وخاصّة بعد هزيمة 67 وما ترتّب عنها من صدمة مروّعة للوعي العربي، خطت الرّواية العربية مسارا مختلفا للواقعية سمته التجريب، حيث اتّجه الرّوائيون إلى التّخلّص من الشّكل الواقعي بتجريب أشكال روائية جديدة، بحيث تحوّلت بوصلة الرّواية من المجتمع نحو الذّات وتراجع صوت الإيديولوجيا والتّاريخ والجماعة في النّصّ الرّوائي لفائدة صعود صوت الذّات والفرد والوعي، وأصبح الرّوائي واعيا بالبناء الاستطيقي (الجمالي) للشّكل الرّوائي أكثر من اهتمامه بجانب المضمون و"تجديد الواقعية وتطعيمها بأشكال ووسائل تعبيرية أخرى**»[10]. سعت الرّواية العربية إلى ابتكار خصائص فنّية جديدة لم تكن معروفة من قبل والتّجديد كان على مستوى الشّكل والمضمون، حيث أصبحت الرّواية العربية تحمل في طيّاتها العديد من الأنواع الأدبية، كما أنّ لغتها تتميّز بالتّعدّد والتّنوّع، أمّا من ناحية الشّخصيات، فلم تعد الشّخصيات الرّئيسية تحمل الحقيقة،كما كان شائعا من قبل، وإنّما نجد الحقيقة عند الشّخصيات الثّانوية، إضافة إلى توظيف الأساطير وشحنها بدلالات جديدة تتطابق مع الواقع.

قسّمت "سيزا قاسم" كُتّاب الرّواية إلى جيلين، حيث تقول إنّه « **إذا كان الرّعيل الأول من الكتّاب بذر البذور الأولى وساعد على خلق التّربة الصّالحة والملائمة لنموّ وتطوّر الأشكال الأدبية، فقد أصّل الجيل التّالي هذه الأشكال واستخدمها كأنّها من تراثه الطّبيعي ولم يشعر تجاهها بالغربة التي عانى منها الرّواد الأوائل فجاءت أعماله ناضجة مكتملة لها قيمتها الفنية الخاصّة**»[11]. لقد انقسم روّاد الرّواية إلى فريقين؛ الفريق الأول قام بتخصيب التّربة لظهور الأنواع الأدبية، أما الفريق الثّاني فقد قام بتأصيل هذه الأنواع الأدبية وجعلها تبدو وكأنّها ملكه الخاص ولم يشعر بأنّها دخيلة، حيث جاءت أعمالهم مُكتملة لها خصوصياتها الفنية التي تميّزها عن غيرها من الأنواع الأدبية الأخرى «**إنّ التّأثّر بالآداب الأجنبية لا يؤتي ثماره سوى في الرّعيل الثّاني، وقد لوحظ أن اتّصال الرّعيل الثّاني من الكتّاب يكون عموما اتّصاله غير مباشر**

بالحضارة الأجنبية وهذه الظاهرة تكرّرت في كثير من بلاد العالم الثّالث»[12]. حيث ساهم الأدب الأوروبي في التّأثير على الثّقافة العربية بطريقة مضمرة، فمن خلال الفتوحات والحملات الاستعمارية تمكّن الأدباء العرب من الاطّلاع على الآداب الأوروبية، وتأثروا بها ونسجوا على منوالها.

يُشير "عبد الله إبراهيم" إلى أنّ الرّواية العربية نشأت متأخّرة مقارنة بنظيرتها الأوروبية، ففي الفترة التي تجاوزت الرّواية الأوروبية الطّابع الرّومانسي الذي كان يغلب على حكاياتها وتوجّهها نحو معالجة المواضيع الاجتماعية، وقامت بتحليل الشّخصيات تحليلا نفسيا مع ربطها بالواقع الاجتماعي، كانت الرّواية العربية لا تزال متمسّكة بالحكايات الرّومانسية وتركّز على الوقائع العجائبية والمثيرة، هذا ما يفسّر تأخّر ظهور هذا النّوع الأدبي في السّاحة الأدبية العربية من جهة، وتأخّر تطوّرها من جهة أخرى، ذلك أنّ الرّواية العربية في بدايات تشكّلها بقيت متمسّكة بالطّابع الكلاسيكي القائم على المحاكاة، ومن هنا بقيت السّردية العربية متمسّكة بالمرويات التّراثية فترة طويلة من الزمن، لكن شيئا فشيئا تمكّنت من التّخلّص من البنية التقليدية عن طريق شحن الرّواية بعناصر فنية جديدة والتّطرّق إلى مواضيع لم تكن معروفة من قبل .

يرى "عبد الله إبراهيم" أنّ الرّواية لم يعرفها تاريخ الأدب العربي من قبل، فهي مستوحاة من الأدب الأوروبي، ولا يمكن تحديد هوية أيّ نوع أدبي، ذلك أنّ الأنواع الأدبية تتغيّر تبعا لطبيعة البيئة الثّقافية وتنوّعها، فالموجّه الأوروبي لم يكن له الأثر الكبير في نشأة الرّواية العربية، وكان من الضّروري تصحيح الفكرة القائلة بأنّ الرّواية العربية قامت نتيجة تأثّرها بالرّواية الأوروبية، ذلك أنّ هذه الفكرة كانت نتيجة الموجّه الكولونيالي، حيث قام بترسيخها في السّاحة الأدبية والنّقدية على السّواء، ومن هنا تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواية العربية قامت نتيجة تأثّرها بالموروث السّردي العربي، وذلك من خلال تفكّك المرويات السّردية العربية وتحلّل بنيتها السّردية، حيث قامت الرّواية بالمزج بين خصوصيات الأنواع الأدبية المتعدّدة حتى تمكّنت من تشكيل خصوصياتها الفنية واتخذت شرعيتها في السّاحة الأدبية العربية .

ولم تتمكّن الرّواية العربية من التّخلّص من المواضيع التّراثية لحظة ولادتها، وبقيت متمسّكة بمعالجة المواضيع الّتي لها صلة بالجانب الدّيني والعرقي، وغلبت عليها المواضيع الّتي كانت سائدة في الأعمال الأدبية الكلاسيكية، وقد «**وضعت رواية "وي. إذن لست بإفرنجي" السّنن الأولى للسّرد الحديث الذي تداخلت فيه مسارات الحكاية بتعليق المؤلّف، ثم العناية البالغة بالحركة والتّنقّل والأفكار، ورافق ذلك ضآلة الاهتمام بالبعد الإنساني الواقعي للشّخصيات، وخضوع بعض العلاقات بين الأحداث للصّدفة وليس للعلّة، بما يكشف سيادة العلاقات السّردية على حساب العلاقات المنطقية بين الوقائع**»[13]. فرواية "وي. إذن لست بإفرنجي" (1859م) تُعتبر أول رواية عربية، ذلك أنّها وضعت القواعد الأولى للرّواية الحديثة، حيث عالجت هذه الرّواية موضوع الفكر العربي ووجهة نظره اتّجاه الإفرنجي، وتطرّقت إلى المواضيع التي تمسّ المجتمع بغية إصلاحه والسّير به نحو الأفضل، ولم تخرج الرّواية العربية عن حدود المواضيع الّتي كانت سائدة من قبل، حيث كانت تهدف إلى إصلاح المجتمع، فهي لم تخرج عن حدود النّظام الأخلاقي لكن تدريجيا تمكّنت من الخروج عن حدود تلك المواضيع واعتمدت على تقنيات جديدة ومواضيع تخدم تحوّلات العصر وتتماشى معه.

رابعا: رواية "زينب" ومسألة الرّيادة الفنية

أثارت رواية "زينب"(1914م) جدلا كبيرا في السّاحة الأدبية والنّقدية العربية، وذلك راجع إلى تميّزها بخصائص فنية جديدة لم تكن معروفة في السّاحة الأدبية العربية من قبل، حيث يرى "يحيى حقي" (1905-1992م) أنّ رواية زينب تحمل خصوصيات فنيّة مطابقة للخصوصيات الفنيّة التي تتميّز بها الرّواية الأوروبية، ويقرّ بأنّ «**"زينب" هي ثمرة قراءات هيكل لـ"بول بورجيه"و"هنري بوردو" و"إميل زولا". وهو أكثر من غيره على صلة بالثّقافة الغربية التي عدّها "حقي" باعثة للإحساس الغريزي بروح الفنّ القصصي ونبضه ومزاجه وعطره**».[14] فرواية "زينب" متأثّرة بالرّواية الأوروبية، ذلك أنّها تحمل نفس خصوصياتها الفنية، وعليه فهي الثّمرة التي نتجت عن قراءة هيكل للعديد من الأعمال الأدبية الأوروبية، فهذه الرواية فسحت المجال لظهور

الفنّ الروائي في الوطن العربي، الأمر الذي دفع بالنّقاد والباحثين إلى القول بأنّها أوّل رواية عربية مكتملة فنيا، وضابطهم في ذلك الحكم هي الرّواية الغربية، أمّا الأعمال الروائية التي لا توافق خصوصيات الرّواية الأوروبية فلا تدرج ضمن دائرة الرواية، وبالتّالي تصبح بدون مكانة في السّاحة الأدبية، وتمّ-بهذا الحكم التأصيلي– إنكار تاريخ عربي طويل من الإنتاج القصصي، لأنّه لا يمثّل بالنّسبة لهم ما يمثّله الإنتاج الغربي من حيث شكله وبنيته الفنية .

فرواية "زينب" شديدة الارتباط بمرجعيات الفكر الغربي، حيث كتب هيكل هذه الرّواية نتيجة قراءته للعديد من الرّوايات الفرنسية واتّخذت خصوصياتها الفنية من البنية الفنية للرّواية الأوروبية، ومن هنا أصبحت رواية "زينب" أوّل رواية عربية «**ومع أن "حقي" فهم السّرد على أنه عنصر إلى جوار عنصر الحوار، وهو تصوّر مختزل وقاصر عن الإلمام بمفهوم السّرد باعتباره وسيلة تشكيل الأحداث، وأنّ الحوار والإخبار إنّما هما عنصران سرديان يسهمان في تنويع تقنيات السّرد في التّعبير عن الأحداث ودلالاتها، فإنّه قد لمس وجوه التّماثل بين رواية "هيكل" وروايات "بورجيه"و"بوردو"و"زولا"**»[15]. تتقاطع رواية "زينب" مع العديد من الرّوايات الأوروبية، فكل من الحوار والإخبار لهما الدّور الكبير في جعل التّقنيات السّردية في تطوّر مستمرّ، كما أكّد "محمد غنيمي هلال" على أنّ الرّواية العربية ذات جذور أوروبية محضة ظهرت في السّاحة الأدبية العربية بفعل التأثّر بالآداب الأوروبية.

إنّ كتابة رواية "زينب" على منوال الشّكل الفني وخصوصيات الكتابة الرّوائية الأوروبية وابتعادها عن الكتابة الفنية العربية ذات الخصوصية المختلفة هو الذي جعلها تعتبر أوّل رواية عربية، حيث قطعت صلتها بالتّراث الأدبي العربي «**ويمكن القول أن تجليات الخطاب الاستعماري قد وجدت لها مكانة مهمّة في ترجيح ريادتها الفنية، حينما أبعدت كافّة النّصوص الروائية التي لا تمتثل لمعايير الرّواية الغربية، فتركت "زينب" تتفرّد بريادة مستعارة من التّعريف الغربي للرّواية**»[16] . لقد ساهم الموجّه الكولونيالي في ترسيخ العديد من الآراء في السّاحة الأدبية العربية، حيث أصبح الفكر

العربي يسير وفق الصورة التي رُسِمت حوله ، وعليه فإنّ القول بأنّ رواية "زينب" أوّل رواية عربية فكرة قام الموجّه الاستعماري على ترسيخها في السّاحة الأدبية والنقدية على السواء ذلك أنّ هذه الرّواية تحمل خصوصيات الرّواية الأوروبية لذلك تمّ نفي كل الرّوايات العربية الّتي كان لها الأسبقية في الظّهور، وأصبحت رواية زينب أوّل رواية عربية ، إضافة إلى الجانب الشّكلي الّذي كان المعيار الأساسي في تحديد فنية العمل الرّوائي فإنّنا نجد أنّ طبيعة المواضيع المعالجة كان لها الدّور الفعّال في إعطاء الأولوية لظهور نوع أدبي على حساب نوع آخر، ذلك أنّ رواية زينب عالجت قضيّة اجتماعيّة تخصّ المجتمع المصري ومثل هذه المواضيع لم تكن سائدة من قبل، هذا العامل أيضا ساهم في تأكيد فنيّة هذه الرواية وجعلها أوّل رواية عربية.

كما إنّ رواية "زينب" تمكّنت من إظهار الخصائص الفنية للرّواية العربية، فخصوصياتها الفنيّة أصبحت نموذجا يُحتذى به أثناء كتابة الرّواية وذلك لما تحمله هذه الرّواية من تقنيات سردية جديدة ومبتكرة لم تكن مألوفة من قبل، لكن هناك من يُقلّل من شأن هذه الرّواية ذلك أنّها لم تحتو على كل الخصائص الفنية الّتي يتطلّبها الفن الرّوائي، وقد ساهمت رواية "زينب" في جعل الرّواية العربية تسير نحو الأفضل بعد أن شهدت السّاحة الأدبية ركودا، ذلك أنّها كانت متمسّكة بالثّقافة التّقليدية، وبالتّالي فهي مُشبعة بروح التّقليد ومع ظهور رواية زينب تمكنت الرّواية العربية من الخروج من دائرة التحجّر والتقوقع ونظموا أعمالهم الرّوائية وفق الخصوصيات الفنيّة الجديدة **«فرؤية "هيكل" تتمثّل، تحديدا، في أنّ الرّواية الغربية كانت في زمنه تُمارس سيطرتها على الرّواية العربية، بنماذجها الأولى التي عاصرت روايته، فهو يقرّ بذلك التّأثير، ويعترف بمدى الاستجابة إليه، وبفهمه على أنه وسيلة لبعث أدبي قائم»**[17]. توصّل هيكل إلى أنّ الرّواية الأوروبية ساهمت في إعادة بعث الرّواية العربية من جديد، حيث شحنتها بخصوصيات فنية وأسلوبية جديدة، فكاتب رواية "زينب" مرجعيته أوروبية ، ذلك أنّه متأثّر بالفكر الأوروبي بدرجة كبيرة ويدافع عنه، ويرى بأنّه المثل الأعلى الّذي ينبغي السير وفقه فهذه الرّواية تعكس المرجعية الفكرية لكاتبها فهو متأثّر بالفكر

الأوروبي، وما الخصوصيات الفنية لهذه الرّواية سوى دليل على هذا التأثر، وقد «**عدّت رواية "زينب" رائدة، لأنها أفادت من الخصائص الأسلوبية والبنائية والموضوعية التي تميزت بها الرواية الأوروبية. وبذلك تكون تخلّصت من المؤثّرات التّقليدية العربية التي وجدت لها حضورا في النّماذج الرّوائية في ذلك الوقت**»[18]. يرى "عبد الله إبراهيم" أنّ تأثّر هيكل بالرّواية الأوروبية و اتّباعه نفس خطوات الكتابة واعتماده على نفس الخصائص الفنية والأسلوبية، هو الّذي جعل هذه الرّواية تحتلّ الصدارة في تاريخ الرّواية العربية، حيث تعدّ أوّل رواية تخلّصت من البنية التّقليدية الّتي عرفت بها الرّواية سابقا، وعليه فالأسلوب التّقليدي يميل إلى التّنميق اللّفظي وإلى الإفراط من توظيف الصّور البيانية والمحسنات البديعية مثلما كان شائعا في المقامات، بينما الأسلوب الجديد المتمثّل في الأسلوب الأوروبي يسعى إلى التّعبير عن خوالج النّفس البشرية ومعالجة القضايا الاجتماعية التي تخدم الفرد والمجتمع، وبالتّالي فهي تعالج مواضيع هادفة عكس الرّوايات التّراثية الّتي تقوم على الأسلوب التّقليدي تستعمل لغرض التّسلية لا غير، ومن هنا كان الأسلوب الأوربي المؤثّر الّذي ساهم في نشأة الرّواية العربية.

خاتمة:

منح النقاد والباحثون رواية "زينب" حقّ الرّيادة الإبداعية وذلك لمطابقتها للخصوصيات الفنية التي تتمتّع بها الرواية الأوروبية ، و كان للموجه الكولونيالي الدور الكبير في جعل هذه الفكرة تنتشر في السّاحة الأدبية والنّقدية في الثّقافتين العربية والأوروبية، وبالرّغم من وجود العديد من الكتابات الإبداعية التي سبقت رواية زينب في الظّهور إلاّ أنّ الخطاب الكولونيالي قام بنفي و تهميش كلّ الأعمال الروائية السابقة ، وأصبحت رواية "زينب" نموذجا يحتذى في الحكم على فنّية الأعمال الرّوائية .

الهوامش:

[1] عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، 2011م، ص133.

[2] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ج1، 2008 ، ص5.

[3] عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية، ص112.

[4] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص499.

[5] عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية، ص 114.

[6] عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة. تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة، ص73 .

[7] عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية، ص132.

[8] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص 526.

[9] عبد الله إبراهيم، الرواية العربية في القرن التاسع عشر ، مجلة علامات، العدد49، سبتمبر2003م ،ص173.

[10] محمد بوعزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010، ص22

[11] سيزا قاسم، بناء الرواية، مهرجان القراءة للجميع 2004، مكتبة الأسرة برعاية سوزان مبارك(سلسلة إبداع المرأة) إشراف: عفاف السيد، القاهرة1978 ص25.

[12] سيزا قاسم، بناء الرواية، ص24

[13] عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة. تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة، ص 228.

[14] عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة. تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة ، ص192.

[15] عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة الأبنية السردية والدلالية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، 2013م،ص59.

[16] عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة الأبنية السردية والدلالية ، ص 43 .

[17] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص 42.

[18] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط2، 2008م ،ص44.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊